## أطروحة نظرية نحو إعادة قراءة وتفكيك بنية المدينة العربية الإسلامية

# منهجية التحليل بالمقارنة وفكرة المدينة «الأساسية»!

# comparison methodology'!.by.'Analysis

د. وليد أحمد السيد *

مقدمة - دراسة الظواهر بالتحليل والمقارنة والمساءلة "الساذجة"

في دراسة نال عليها جائزة نوبل للعلوم عام ٢٠٠١، حل العالم البريطاني تيم هينت (Tim Hunt) بجامعة كامبردج معضلة نظرية راوحت طويلا في سر من أسرار البيولوجيا والحياة - هي انقسام الخلية. ولعقود طويلة فقد أدرك العلماء "نظريا" ضرورة وجود "مسبب" لهذه الآلية الطبيعية الأزلية منذ بدء الخلق إلى قيام الساعة، والتي لم تتوقف مطلقا في دوران مذهل وهائل وراقبوا الخلايا تنقسم انقساما مباشرا تحت المجهر بما يفسر سرا من أسرار الخلق حيث تتكاثر الخلايا قليلة العدد إلى مئة بليون خلية والتي تشكل جسم طفل صغير، عدا عن ملايين الملايين من المخلوقات الحيوانية والنباتية التي يزخر بها الكون. الباحث العالم هينت تميز منذ صغره بمساءلة أبسط الظواهر التي يراها الناس عادية جدا ومن المسلّمات، مثل سؤال:" لماذا السماء لونها أزرق؟". وسواها من الأسئلة التي قد يتحرج من طرحها العامة من الناس رغم عدم معرفتهم للجواب. ومن الأسئلة "السخيفة" الأخرى التي طرحها هذا العالم مثلا:"لماذا يخترق الضوء الزجاج ولا يخترق الجدار؟". وطبقا لمقولة العلماء، فطرح مجموعات من الأسئلة السخيفة ستقود بالضرورة لإيجاد "عالم" متميز. فالعلم والبحث العلمي يبدأ من مساءلة وتحليل ودراسة الظواهر البدائية والتي لا تجلب انتباه العامة. وجواب السؤال الأخير له متعلقات بطبيعة ترابط الجزيئات في حالتي الجدار والزجاج، حيث إن الأخير هو عبارة عن "سائل متجمد" والسوائل تركيبة ذراتها أو (configuration) لا تمنع فوتونات الضوء رغم أن بعضها يحرفها أو يعكسها كما يفعل الزئبق لكثافته.

وانطلاقا من هذه المنهجية، فقد شرع العالم هينت في محاولة فهم "الآلية" التي تنقسم بها الخلية وسبب هذا الإنقسام أصلا وما هو العامل الذي "يدفع" الخلية للانقسام. فالعلم والمنطق يقضي بوجود "إنزيم" ما أو بروتين أو مادة معينة ضمن الخلية تحفز هذا الإنقسام اللامتناهي للخلية وبشكل مذهل بما راقبه العلماء طويلا تحت عدسة المجهر الإلكتروني ولم يجدوا له تفسيرا! وفي سلسلة من التجارب المضنية وعلى فترة زمنية طويلة امتدت منذ الثمانينيات، بأخذ عينات من البيض قبل وبعد الإخصاب، قام العالم تيم هينت في مختبره باكتشاف ثلاثة أنواع من البروتينات (أ، ب، ج) وتسجيلها على مقياس الطيف وأخذ صور ثابتة (snapshots) للعينات المختلفة في مراحل مختلفة ودراستها ومقارنتها. وبدأ يلاحظ تناوب ظهور هذه الأنواع الثلاثة من البروتينات خلال مراحل انقسام الخلايا في البيضة، لكن تلك المقارنة لهذه الصور الثابتة (snapshots) لم تكن كافية لفهم الظاهرة فهما "متصلا" وكاملا. وباستعارة آلية تصوير للطيف من عالم أميركي بحيث يمكن تسجيل آلية الإنقسام لفترة زمنية أطول لا كصور ثابتة (snapshots) بل بآلية تشبه الفيلم القصير، بدأ العالم تيم هينت بالحصول على نتائج بيانية تمكنه من تتبع ظهور واختفاء البروتينات الثلاثة خلال عملية الإنقسام الطبيعي. ونظريا كان العلماء قد أطلقوا على البروتين المسؤول عن تحفيز عملية الإنقسام إسم (cyclin) نظرا لأنه يقع ضمن حلقة متصلة من الإنقسام البيولوجي. وبمراقبة وتحليل ومقارنة الأطياف المختلفة بدأ العالم يكوّن فكرة أولية عما يجري حين انقسام الخلية حيث بات البروتين الثالث "يختفي" من القراءات التي تسجلها أفلام الطيف. وكما يروي العالم في برنامج وثائقي مثير تابعه كاتب هذه السطور على القناة البريطانية الثالثة (BBC3) بتاريخ ٢١ نيسان ٢٠١٠ بعنوان (Beautiful Minds) الساعة التاسعة مساء، فقد سجل أفكاره الأولية في ورقة أرسلها لمجلة مختصة للنشر، لكن رد الناشر جاءه كالتالي:" الأخبار الجيدة هي أننا سننشر ورقتك، لكن الأخبار السيئة هي أن أفكارك لا تلقى رواجا في الأوساط العلمية حيث أرسل إلينا أحد المحكّمين رده كالتالي (based on faulty logic this is a wild speculation)!" أو (هذا تخمين بعيد في الشطط ومبني على منطق مغلوط!" - وهذه الجملة تعكس المراحل التي يمر بها الإكتشاف العلمي والإثبات النظري للأفكار الجديدة بما يلاقي الكثير من العنت والرفض من قبل السطحيين من الباحثين ممن يراوح طويلا عند التقليدية والسائد من الأفكار، وبما يعكس الجمود وعدم تقبل الجديد بسهولة، فضلا عن أن عملية التحكيم هي عملية نسبية ومعيارية وليست مطلقة بتاتا، فما يقبله عالم في نفس المجال قد يرفضه آخر بما يرمي عملية التحكيم برمتها في هامش ضئيل من التوافق الفكري.

مناسبة هذه الإنعطافة نسوقها في معرض التقديم لأطروحة نظرية نستكملها في عرضنا لتفنيد وتحليل الدراسات التقليدية التي راوحت في إطار المدينة الإسلامية وفقه العمران، حيث سادت مجموعة من الأفكار النظرية لعقدين من الزمن على أيدي فئة من الباحثين الذين "تعصبوا" لكتاباتهم اليتيمة بما بات نقدها يشكل تهديدا لأفكارهم التي شرعوا ينشؤون عليها جيلا كاملا من الطلبة بطريقة التلقين لا المناقشة والإقناع. وفي هذه المساحات فلسنا بمعرض هدم هذه النظريات برمتها لكننا نسعى لتقديم أطروحات بديلة وما نرى ونزعم أنه من الأسس التي كان يجب على هذه الدراسات أن تبحث فيه بعمق ابتداء قبل أن تنتهي إلى ما انتهت إليه. فهناك مجموعات أساسية من الأفكار التي تم المرور عليها مرور الكرام والتي تستحق مجموعات من "الأسئلة الساذجة" - بالمنظور البحثي العلمي الغربي. ولذلك فسنعنى بتخصيص مساحة لمواصلة الكلام عن المدينة الإسلامية وتقديم مقاربة أساسية "لمنظومة محورية لفهم آلية نشأة المدينة العربية التقليدية ضمن الحضارة الإسلامية" بتقديم فكرة "نظرية" فلسفية لما يعرف "بالمدينة الأساسية" أو (fundamental city)، وفي مساحة تالية سنتطرق لتعريف أساسي لم توجّه شطره أيا من الدراسات التقليدية السائدة، فضلا عن مناقشته بعمق وهي إلزامية وأساسية لفهم الناتج العمراني الموروث، وتتعلق بفكرة التمييز الأساسي بين العمارة أو (architecture) وبين البناء أو (building) لما لذلك من أهمية ملحّة لفهم "حلقة مفقودة" ومسكوت عنها لفهم نشأة ونمو المدينة العربية الإسلامية.

■ مخطط لـ مدينة اساسية على شكل بيت العنكبوت

■ تيم هينت

كلمة السر - "الآليات الحركية" - في الدراسات الكلاسيكية في المدينة الإسلامية!

لمحاولة فهم الظاهرة العمرانية فيما يسمى بالمدينة الإسلامية، لم تقدم أو تحاول إحدى الدراسات القائمة تقديم أية فكرة نظرية أو فلسفية لنظرية قيام المدينة العربية الإسلامية بشكلها المجرد أولا وضمن إطارها الثقافي الحضاري ثانيا. والخلل الثالث في هذه الدراسات جميعها، بما تناهى لنا من أشهر الدراسات السائدة على الأقل، هي أنها أهملت منهجية علمية رصينة ومتبعة تقوم على تحليل الظاهرة "بالمقارنة" والإستقراء والإستنباط. وبدلا من ذلك فقد "اختبأت" جميعها خلف فكرة تقوم على محاولة تقديم قراءات "للآليات" التي كانت وراء الإفراز العمراني الناتج - وأضفت على هذا المنتج "الجامد" طابع "الحركية" من زعم مضلل بأن العوامل التاريخية التي صاغتها كانت وما تزال صالحة لكل مكان وزمان انطلاقا من هذه "الآليات الحركية"! رغم حقيقة أنها عوامل تاريخية خاصة بظرف ومكان وزمان ولها خصوصية ثقافية وأطر محدودة. وغدت كلمة "آليات" بمثابة كلمة السر ومفتاح العقول النيرة والتي أشهرها هؤلاء الباحثين في وجوه الآخرين من طلبة وباحثين. ويحضرني أحد "عتاولة" المنظّرين في المدينة الإسلامية حين حادثني هاتفيا من أمريكا قبل عامين وتطرقنا للموضوع لماما، فعاب على كتاب بحث في المدينة الإسلامية، لأحد الباحثين الأفاضل من شمال إفريقيا، ووصفه بأنه "سطحي" لأنه لم يبحث في "الآليات" التي أفرزت المدينة الإسلامية. وهكذا باتت كلمة "آليات" هي مفتاح المفاتيح وسر الأسرار الدفينة في فهم المدينة الإسلامية. فمن حاججك منهم في فكرة بالمدينة الإسلامية، تراه يصرخ بوجهك "آليات" و"حركية"، وبات الجميع - من فهم ومن لم يفهم - يختبئ خلف كلمة سحرية اسمها "الآليات" و"الحركية" التي أفرزت الناتج العمراني - لمحاولة الإفلات من "جمود" النصوص التاريخية ومحاولات بائسة لمد مدلولات النصوص، والوقائع، والنوازل التاريخية خارج إطارها المكاني والزمني. ومن الطريف والمذهل أن هذه الكلمة السحرية باتت أيضا بمثابة السلاح الذين يهاجم به هؤلاء الباحثين، العرب "المستغربين"، دراسات المستشرقين ووصفهم للمدن العربية التي شاهدوها أثناء ترحالهم. ففي ورقة "مذهلة" بطولها تصل لأكثر من سبعين صفحة يطالعنا باحث بنقد للمستشرقين بأنهم لم يفهموا المدينة الإسلامية وأن وصفهم لها (بأنها "متاهات" وشوارع متعرجة هو مغلوط وسطحي لأنهم لم يفهموا "الآليات" التي أفرزت هذا الناتج!) والطريف في هذا المنطق الساذج - والذي قرأه ربما عشرات الطلبة والباحثين - ولم يلتفت أحدهم للسطحية التي يفضحها، هو أن فهم المستشرقين أو "عدم فهمهم" لهذه "الآليات" لن يغير مطلقا من "حقيقة" أن الشوارع هي متعرجة فعلا! فالمستشرقون وصفوا ما شاهدوه، ولن يغير مطلقا فهم "الآليات" أو عدم فهمها من شكل الشارع أو بنية البيئة التقليدية في المدن العربية والتي تحاكي "المتاهات" المتعرجة فعلا - وهي "خصوصية" للمدينة العربية وليست "عيبا" فيها بالضرورة. وهكذا غدت كلمة "آليات" هي كلمة السر وسلاحا مشرعا بوجه كل من وقف ليناقش أية فكرة متعلقة بهذه الدراسات التقليدية "اللاتاريخية" التي تقوقعت عند جزئيات المدينة، فيما كان ينبغي أن تنصرف لدراسة أسس أولية في المفاهيم "غائبة" ومقارنة تحليلية - نتطرق لها في هذه السلسلة بإذن الله.

فمن أبرز خصائص المقارنة التحليلية - وهي من منهجيات البحث العلمي الغربي - وكانت وراء معظم إن لم يكن جميع الفتوح العلمية التي غيرت وجه العالم، أنها تكشف ببساطة وجلاء الفروقات وأوجه التشابه بين النماذج المختلفة. وبشيء من العقل والمنطق والصبر والمثابرة يمكن تفسير الظاهرة بعمق ومنطق وفضح التناقضات والإجابة ببرهان عن الأسئلة الإبتدائية "الساذجة" التي قد تبرز - وهي منهجية اتبعها كاتب هذه السطور منذ أكثر من عقد كامل في أبحاث لتفسير ظواهر عمرانية حضرية، ومعمارية، ضمن سؤال التراث والحداثة وعلاقة العمارة العربية المعاصرة، كمنهجية، بالموروث من التراث كفلسفة نظرية وأساسا اعتمدت عليه طروحات حديثة ومعاصرة. أما هذه الدراسات التقليدية "أحادية النظرة" فشرعت في تقديم الأفكار بكرم وسخاء اعتمادا على "نبش" بطون الكتب الصفراء "ونسخ" نصوص الأقدمين وكأنها نصوص مقدسة، تاركة مساحة هائلة من التقدم العلمي والتاريخي والزماني واختلاف المكان لهامش البحث العلمي العربي. وشرعت تقدم مجموعات من المقارنات العاجلة السطحية بمدن "الآخر" القائمة على مبدأ أن "البيئة الغربية هي غاية وليست وسيلة" وأن الشريعة جعلت البيئة وسيلة، وسوى ذلك من ترهات سطحية وساذجة. وبتنا نضرب أخماسا بأسداس لسفاهة المنطق المضلل لأجيال من طلبتنا وباحثينا. ولذلك فسنجتهد في مساحات قادمة للبحث في الأساسيات الغائبة لتقديم أفكار "بديلة" تطرح طرقا جديدة للتفكير لطلبتنا ممن يريد البحث في الفكرة والفكرة المقابلة والتحليل والمقارنة لا المضي في اتجاه واحد وأحادي كتيار فكري "قطيعي". وطبعا من شاء المضي في هذا الفكر "الأحادي السائد"، ويأبى أن يفتح عقله للفكرة الأخرى فإننا " لا نستطيع إلا أن نجلب الحصان لحوض الماء، ولا يمكننا مطلقا إرغامه على الشرب"! ومن شاء أن يقابل الفكرة التي نطرحها من خلال "الإختباء الصبياني" خلف كتابات أكل عليها الدهر وشرب فلا يعنينا طرح أفكارنا له، ولا يهمنا هؤلاء المنغلقة عقولهم عن مجرد استعمالها للتفكير والتحليل، فهنيئا لهم هذا الفكر الدوغمائي المتعصب الذي يرفض الطرح الآخر ابتداء.

فكرة المدينة الأساسية أو (Fundamental City) The

ومن المهم هنا ملاحظة تعريف كلمة المدينة "الأساسية" أو (Fundamental)، كيلا ينصرف الذهن بسوء فهم للمدينة "المثالية" (Ideal) أو الفاضلة (Utopian) مثلا. فطرحنا هنا يعنى بمحاولة الرجوع للخلف وتتبع نشوء المدينة، أي مدينة، بشكل نظري فلسفي مجرد، وضمن "طبقات" متعددة من النشوء تراوح بين التشكل الفيزيائي الحسي المجرد الذي يتأثر بالعوامل الطبيعية، وطبقات أخرى، ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية - نعالجها كمنظومة متكاملة لا كشرائح منفصلة، وهو مزلق وقعت به الدراسات التي بين أيدي طلبتنا وباحثينا في المعاهد العربية والشائعة منذ عقود.

ومن أبرز من نظّر لهذا المفهوم وبحث في الظاهرة الحضرية بمنهجية تعتمد مقارنة النماذج وقراءة وتحليل الفروقات وأوجه التشابه هو البروفيسور (Bill Hillier)، أستاذ مورفولوجية النموذج الحضري بجامعة لندن وكلية بارتلت للعمارة، وقد قدم مجموعة من المفاهيم الفلسفية النظرية في كتابه المرجعي

(Space is the Machine) في فصول متعددة منه اعتمادا على قراءته للعديد من المدن ضمن ثقافات متعددة. ومنهجية العالم (هيلير) مشتقة من فهم عميق لفلسفة النموذج الحضري وقراءة مقارنة بين النماذج اعتمادا على تحويلها إلى "عينات مختبرية" تحيلها إلى ما يشبه "جدول الطيف" لإبراز المتناقضات ومحاولة تأطيرها بأطر نظرية بطرح أسئلة تتدرج من السهل نزوعا نحو التعقيد واستخلاص النتائج. وكأستاذ مشرف لكاتب هذه السطور، فقد تمحورت أطروحة الدكتوراة في دراسة مقارنة لأعمال حسن فتحي وراسم بدران ومقارنتها "بعينات" تراثية وتتبع الفروقات والتشابه ضمن سلسلة أسئلة منهجية قدمت الدراسة مجموعة من النتائج لها مساحات قادمة لا تعنينا هنا بقدر ما تعنينا هذه المنهجية "المختبرية" التي تشيع في معاهد الغرب الحديثة - والتي عكستها منهجية تيم هينت في فهم دور بروتين (Cyclin) في انقسام الخلية الأزلي الأبدي كما قدمنا آنفا. وللموضوع بقية حيث نطرح في مساحة قادمة المدينة "الأساسية" بفكرتها النظرية المجردة لمحاولة فتح الباب أمام توجهات أخرى لدراسة وفهم المدينة العربية "الإسلامية" بنظرة شمولية مفتوحة على "الآخر"، والفكر النظري، لا منكفئة على ذاتها كما قدمتها هذه الدراسات الكلاسيكية "العتيقة"!■

*دكتوراة في فلسفة العمارة من (UCL) - جامعة لندن
مؤسس مجموعة لونارد ودار معمار بلندن
sayedw03@yahoo.co.uk